لماذا خلق الله الحشرة ؟

سئلت ذات مرة . . لماذا خلق الله الحشرة ؟ ؟ ! !

ولقد فكرت حين ذاك وقلت فى نفسى ربما لو أخذنا رأى الحشرة لقالت . . ولماذا خلق الله الإنسان . . ؟

ولو تأملنا الكون لوجدنا أن الله خلق لكل شىء آفة تعتدى عليه .

خلق القطن وخلق دودة القطن

وخلق النبات وخلق الجراد

وخلق الأسنان وخلق سوس الأسنان

وخلق العين وخلق الرمد

وخلق الأنف وخلق الزكام

وخلق الثمرة وخلق العفن

وخلق الحديد وخلق الصدأ

وخلق الإنسان وخلق معه جيشاً من الأعداء لاغتياله من بق وبراغيث وبعوض وذباب وديدان وميكروبات وسل وجذام وتيفوس وكوليرا .

والله لم يحاول إخفاء هذه الحقيقة وإنما أعلنها فى كتابه على أنها أمر مراد مقصود ، فقال جل شأنه .

« لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فى كَبَدٍ » ٤ – البلد

أى فى مكابدة وعناء . . فالله لم يرد بالدنيا أن تكون دار سلام وإنما أرادها أن تكون دار عناء وكفاح وشد وجذب بين أضداد . . أراد أن يمتحن كل شيء فيسلط عليه ضده ، وأن يبتلى كل شيء بنقيضه .

ونعود فنقرأ فى القرآن إشارة إلى هذا الناموس الذى جعل من الدنيا محلاً لتدافع المتناقضات .

يقول ربنا تبارك وتعالى فى كتابه :

« وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ » .

٢٥١ – البقرة

وتتكرر الإشارة فى مكان آخر بنفس الألفاظ :

« وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً » . ٤٠ – الحج

وتكرار الإشارة يدل على الأهمية ولفت النظر .

والله يشرح لنا فى الآيات أسرار حكمته فى هذا الناموس العجيب ، فهو يدفع بالأقوياء بعضهم على بعض ويكسر الجبابرة بجبابرة من جنسهم ليستطيع الضعفاء أن يعيشوا ويمارسوا العبادة فى صوامعهم ومساجدهم . . فهذا القانون مظلة أمان تحمينا من جبروت الجبارين لأن الله يستنفد طاقتهم فى ضرب بعضهم بعضاً .

ومعلوم الآن فيما نرى من التاريخ أن هذا الأمر صحيح تماماً فى الأفراد كما أنه صحيح تماماً فى الأمم فهذه أمريكا تتضخم وتتعملق فى القوة وتملك القنبلة الذرية ثم الهيدروجينية فيدفعها الله بروسيا ويسهل لها هى الأخرى امتلاك القنبلة الذرية ثم الهيدروجينية . . ومن انشغال القوتين الكبريين بصراعهما بعضهما بعضاً نستطيع نحن دول العالم الثالث أن نتنفس ونعيش . . بل نستطيع أن

نغازل الاثنتين ونستفيد . . ولو أن روسيا كانت انفردت بالعالم لأهلكته . . ولو أن أمريكا كانت انفردت بالعالم لأهلكته ولكن رحمة الله دفعت بالقوتين العظميين بعضهما ببعض ، بل الأمر العجيب أنه حينما بدأت القوتان الكبريان روسيا وأمريكا تتقاربان وتتعايشان أظهر الله الصين هائلة عملاقة على المسرح وسلمها مفاتيح الذرة ثم دفع بها نقيضاً يستنزف الروس والأمريكان معاً .

قانون ثابت يعمل فى الفرد والمجتمع والطبيعة والتاريخ هو دفع المتناقضات بعضها ببعض . .

والله يقول لنا إن هذا القانون مرتبط بصلاح الأمور فى الأرض ولولاه لفسدت الأرض .

« وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ » .

٢٥١ – البقرة

وهذا القانون يعمل منذ بدء الخليقة ، منذ أن أهبط الله آدم إلى الأرض .

« وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » . ٣٦ – البقرة

تقررت السنة الإلهية من البداية « بعضكم لبعض عدو » ثم هى سنة عامة ، فالله يضرب الأضداد بعضها ببعض فى كل شىء ، فى المادة وفى الفكر .

« كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فى الأَرْضِ » . ١٧ – الرعد

وبذلك يمحص الأفكار كما يمحص الأفراد فيبقى على الصالح ويقضى على الفاسد .

ولم يسلم الأنبياء من هذا القانون .

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا » . ١١٢ – الأنعام

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا » ٣١ – الفرقان

ذكر القرآن هـذا القانون وحدده لأكثر من ألف وثلاثمائة سـنة قبـل أن يتـكلم عنه هيجل موسعاً تحت عنـوان Dialectical Idialism او المنطق الجدلى المثالى . . وكان فى ظن هيجل أن هذا القانون يعمل فقط فى عالم الفكر . . ثم جاء ماركس ليقع فى ضلال آخر فيتصور أن القانون يعمل فى المادة وأنه جدل مادى وأعطاه اسم Dialectical Materialism أو المنطق المادى الجدلى ثم وقع ماركس فى خطأ ثان متصوراً أن القانون يعمل بذاته وأنه هو الذى خلق من المادة كل صور الحياة من نبات وحيوان وإنسان ، ثم وقع فى ضلال ثالث فأخذ يلفق من هذه الآراء مذهباً يسخره للأهواء السياسية والأغراض بتحريض الفقراء على الأغنياء والعمال على أصحاب الأعمال فيما يسمى بفلسفة الصراع الطبقى .

وكل هذه الأخطاء لا نجدها فى القرآن الذى أشار إلى القانون منذ ألف وأربعمائة سنة . . فالقرآن يعلمنا أولا أن هذا القانون شامل لا هو مادى كما يقول ماركس ولا مثالى كما يقول هيجل . . ثانيا . . أن هذا القانون مخلوق وليس خالقاً . . فهو مجرد أداة فى يد الله يصلح بها حياة خلقه ويحرك بها الأحداث نحو توازن محمود بين مختلف القوى لكيلا يطغى طرف على طرف .

« وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ » .

٢٥١ – البقرة

إذن الله هو الذى يدفع والله هو الذى يجرى القانون .

الله أولا والله أخيراً .

الله هو الحقيقة الأولى . . والقانون الجدلى مجرد سبب . . مجرد أداة مخلوقة مسخرة تعمل بمشيئته وتصريفه ، هذا هو جلاء الأمر فى موضوع المنطق الجدلى الذى تدور حوله معارك الفلسفة والسياسة اليوم . . أنزله الله على قلب محمد عليه الصلاة والسلام منذ ألف وأربعمائة سنة .

وما أكثر ماسمعنا الصوفيين ينشدون فى أشعارهم :

أن العناصر مجمع الأضداد

يحتى الظلام بها دوام جهاد

ونقرأ لمولانا الإمام الصوفى أبو العزايم يصف الروح والجسد . . بأنهما « كالثلج والنار قد جمعا برحمته » . . الشىء وضده . . الشىء ونقيضه . . ابتلى الله الروح بالجسد كما جمع بين الإلكترون السالب والبروتون الموجب فى ذرة العنصر (إن العناصر مجمع الأضداد) .

ويقول أبو العزايم عن نفسه :

مجمع الأضداد ختمى أولى

أى من الله جئت وإلى الله أعود (ختمى أولى)

ثم يعود إلى نفس المعنى فى بيت آخر

لـــوح آيـــات التجلى هيكلى جامع الضدين ختمى أولى

فهذه النظرة الجدلية الديالكتيكية كانت عندنا قديمة .

والشاعر عندنا يقول :

لكل شيء آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المبرد

ثم يشرح لنا القرآن وجهاً آخر من وجوه الحكمة فى هذا الناموس الجدلى هو تحقيق التوازن وبلوغ صراط الاعتدال الذى يسميه بالصراط المستقيم .

والصراط المستقيم فى القرآن هو الوسط العدل المتزن بين نقيضين ، هما : الإفراط والتفريط

بين البخل والإسراف الصراط المستقيم هو الكرم

وبين الجبن والتهور هو الشجاعة

« وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً »

٦٧ – الفرقان

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ». ٢٩ – الإسراء

ويصف أمة الإسلام بأنها أمة الوسط (أهل الاعتدال)

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ».

١٤٣ – البقرة

والمسلمون شهداء على الناس لأن عندهم المعيار الصدق الذى يحكمون به على جميع أهل التطرف من كل الملل والمذاهب (مثل المتر الذى يقيس الطويل والقصير) .

والوسط العدل فى الإسلام ليس مجرد وسط حسابى وإنما هو وسط تركيبى انتقائى جدلى . . فالكرم ليس وسطاً حسابيًّا بين البخل والإسراف وإنما هو وسط انتقائى يضم أحسن ما فى البخل (وهو الحرص) إلى

أحسن ما فى الإسراف (وهو المبادرة والبسط) ثم هو يضيف إلى هذه الصفات مزيداً من صفات أخرى مثل العقل والسداد وحسن الاختيار ليؤلف الكرم . .

وبالمثل نرى أن الشجاعة ليست وسطاً حسابيًّا بين الجبن والتهور . وإنما هى وسط انتقائى تركيبى جدلى ، فهى تأخذ من الجبن صفة الحذر ومن التهور صفة الإقدام ثم هى تضيف مزيداً من صفات الثبات وسلامة الهدف والإصرار لتؤلف الشجاعة .

وبالمثل نقول إن الصراط الإسلامى ليس وسطاً حسابيًّا بين اليمين الرأسمالى واليسار الشيوعى ، وإنما نرى فى الإسلام تركيباً انتقائيًّا جدليًّا يأخذ من اليمين أحسن ما فيه ومن اليسار أحسن ما فيه ثم هو يتجنب مساوئ النظامين ، ثم هو يعطى إضافة من النعمة الروحية والإشباع الروحى يمنح المسلم سنداً من الغيب وخلوداً فى الجنة . . فهنا شىء جديد متفوق وليس مجرد وسط حسابى بين اشتراكية ورأسمالية ، وإنما نظام يشمل الاثنين ويفوق الاثنين ويسبق الاثنين (فالإسلام سابق على الاثنين بألف سنة) .

وكما نجد فى القرآن أسس المنطق الجدلى الذى يقوم على التوتر والتناقض وصراع الأضداد . . المنطق القائل بأن فى كل شىء جرثومة فنائه (كل شىء هالك إلا وجهه) . . كذلك نجد فى القرآن أسس المنطق الصورى ، وهو المنطق الأرسطى القائل بدوام الأشياء وثباتها واستمرارها . . ولكن القرآن يقصر هذا المنطق على الإلـهيات . . فلا ثبات ولا دوام إلا لكل ما هو إلـهى . . مثل السنن والقوانين الإلهيـة .

« فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً » .

٤٣ – فاطر

وكذلك الذات الإلهية أو الوجه الإلهى .

« كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ». ٨٨ – القصص

« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَام » .

٢٦ – ٢٧ – الرحمن

ولعل هنا من يشطح به ذهنه فيتصور على الله شبهة ظلم إذ خلق الإنسان فى كبد وسلط عليه المرض والميكروب والحشرة وسلط بعضه على بعض . : تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

وتصحيح الأمر أن الله خلق الداء ولكنه أيضاً خلق الدواء (فى شراب الينابيع وفى الأعشاب وفى عناصر الأرض تحت أقدامنا) وخلق العقل لنستدل ونستكشف ونعرف كيف نتداوى ونبرأ من أمراضنا .

وحينما شكا أيوب لربه ما أصابه قائلا :

« أَنِّى مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ». ٤١ – ص

قال له ربه :

« اُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ». ٤٢ – ص

فالله خلق السم والترياق . . ثم أنه سبحانه جعل فى هذا التحدى العدوانى المستمر مصلحة ومنفعة . . إذ أن سم الميكروب يحفز النسيج الحى إلى الاحتشاد كما تدفع لسعة البرد الدم إلى الشرايين . . وبذلك جعل الله من عدوان الطبيعة حافزاً مستمراً لمخلوقاته لتحتشد ولتبتكر ولتبدع أحسن ما تختزن من طاقات فتكون بذلك دائماً على أكمل صورة . . ومن الصراع بين الجسم والميكروب تنشأ الحصانة والمقاومة .

ولو أن الحياة الدنيوية سلمت من الأعداء وأخلدت إلى الراحة والأمن والدعة لترهلت وتخنثت وضعفت وانقرضت . . وهو المصير

المألوف الذى نشاهده فى الأفراد كما نشاهده فى الأمم حينما تخلد إلى الترف والملذات . . ولهذا يغرس الله الأشواك فى الأمم لتخرج منها الورود . . وهذا هو ما حدث عندنا . . حينما تخاذلت الأمة العربية وانقسمت واختلفت وأنهكها الترف غرس فى وسطها شوكة اسمها إسرائيل لتحفزها إلى الوحدة حفزاً وتضطرها إلى اصطناع القوة والحديد والعضلات والتكنولوجيا لتواجه تحدى الموت . . وحينما شدت أمريكا أزر إسرائيل بالسلاح فجر الله عندنا البترول والمال العربى وينابيع الطاقة وفتح أمامنا ترسانات عدة للسلاح عن يمين وشمال . .

سنن كونية تعمل وقوانين أزلية تجرى فى خفاء واستسرار وتعمل دائبة على حفظ التوازن العجيب المعجز للمخلوقات ، حتى يتقوى الضعيف ويضعف القوى ، وحتى لا تطغى قوة على قوة ، ولا تبتلع حضارة حضارة ، ولا يفنى نوع من الأحياء نوعاً آخر .

تجد أمثلة لذلك فى عالم الحشرات وفى عالم النبات وفى عالم الإنسان وفى الطبيعة . . كلما تكاثرت حشرة وتجاوزت معدلاتها أوجد لها الله عدواً طبيعياً يلتهمها ليعود التوازن إلى البيئة ولتجد جميع المخلوقات فرصاً متكافئة للحياة . . وهذا ما نراه فى جنوب السودان حيث يتوالد البعوض بكثرة هائلة فى الأماكن الموبوءة بالملاريا فتظهر له حشرة مضادة هى الحباحب المضيئة التى تغطى الأشجار بالملايين وتضىء لتجذب البعوض وتأكله .

وحينما تدخل الإنسان بالمبيدات الحشرية فإنه أخل بهذا التوازن الدقيق وأدى بتدخله إلى كارثة تلوث البيئة . . وذلك لأن المبيدات قتلت الحشرات ، وقتلت الطيور التى تأكل الحشرات ، ولوثت الحشائش

والمزروعات ، وأمرضت البهائم التى ترعى هذه الحشائش ، ثم أمرضت الإنسان الذى يأكل لحوم تلك البهائم ، كما لوثت مجارى الماء وقتلت الأسماك ، فأفسدت البيئة كلها وأتلفت علاقاتها بضربة واحدة .

ثم أنها قتلت الحشرة الضارة والحشرة المفيدة معاً .

وهذا هو الفرق بين الحكمة الإلهية والحماقة البشرية وبين علم الله الشامل وعلم الإنسان المحدود .

كيف يتصرف الله بحكمته فى فضلات الحيوان والنبات ؟ ! . . نحن نرى مثلا نادرا من العلاقة المتبادلة المنسجمة المتناغمة . . الفضلات التى يخرجها الحيوان يستخدمها النبات كسماد وغذاء نافع مفيد . . وفضلات التنفس التى يخرجها الحيوان وهى ثانى أكسيد الكربون يستخدمها النبات فى بناء نشوياته بالتمثيل الكلوروفللى . . ثم ما هى الفضلات التى يلقيها النبات فى الجو بعد هذه العملية الحيوية . . إنها الأكسوجين الذى يلتقطه الحيوان والإنسان فى نهم وعطش ليتنفس به ويعيش . . علاقة متبادلة غاية فى الدقة والانضباط ، ما يستغنى عنه طرف يحتاج إليه الطرف الآخر . . كل منهما يكمل الآخر فى رحلة الحياة . . وهكذا يستفاد من جميع المخلفات . .

وفى المقابل ماذا يفعل الإنسان بعلمه وعقله . . وكيف يتصرف فى فضلاته . . إنه يلقى بآلاف الأطنان من مخلفات المصانع الكيماوية من مواد كبريتية ضارة ومهلكة فى مجارى الماء فيلوثها . . والسفن تلقى بالزيوت والشحوم على الشواطئ فتتلفها . . وفضلات المصانع الذرية تذهب إلى البحر وتنشر معها الموت أينما حلت . . والغبار الذرى المتخلف من التجارب تحمله الرياح فى الجهات الأربع . . ولا يعلم إلا الله ماذا

سيفعل بنا وبالأجيال المقبلة من عاهات وأمراض وتشوهات .

الله ينشر النظام والانسجام بقوانينه وسننه .

والإنسان ينشر الاضطراب والفوضى والتلوث بعقله وعمله .

وما أجمل القرآن حينما يلخص هذه الحكمة الإلهية فى كلمات .

« خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ». ٢ – الفرقان

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » . ٤٩ – القمر

« قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً » ٣ – الطلاق

« وَأَنْبَتْنَا فِيهَا (أى فى الأرض) مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ». ١٩ – الحجر

« وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ». ٨ – الرعد

والأرض كمثال قدرها الله بمقدار فى الكتلة والحجم والبعد المكانى عن الشمس . . لو كانت أبعد لماتت الأحياء عليها من البرد ولو كانت أقرب لاحترقت من حر الشمس . . ولو كانت الأرض أصغر حجماً وكتلة لفقدت جوها وماءها (بسبب ضعف الجاذبية كما هو حال القمر) ولأصبحت الحياة مستحيلة . . ولو كانت أكبر حجماً وكتلة لتضاعفت الجاذبية ولتضاعف وزن الكائنات عليها ولما استطاعت الحركة . .

وقل ذلك فى موقع كل نجم فجميع الأجرام السماوية مرتبطة ببعضها البعض ارتباط الحبات فى مسبحة .

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ » . ٧٥ – الواقعة

والله جعل لكل حركة إيقاعاً فى الزمان والمكان . . يؤخر ويقدم ويبدئ ويعيد بمقتضى الحكمة العالية التى لا يحيط بها عقل . . ومن أسمائه أنه

المقدم والمؤخر والمبدئ والمعيد والعليم والحكيم والمحيط والكبير والمتعال . . المتعال على جميع الأفهام وعلى جميع العقول . . فهو المحيط الذى لا يحاط به . . سبحانه هو البديع فى كل ما خلق وأنشأ وصور .

وما أبدع وأحكم ما صنع بهذا الناموس الذى خلق به الإنسان والحشرة .